الاسلام في الصين

الاسلام قديم الهجرة في بلاد الصين يذكر الصينيون ان اول ظهوره بين ظهرانيهم كان لعهد السلطان (تايتسونغ) وذلك في القرن السابع للمسيح وان اول داخل من المسلمين الى تلك الديار رجل من عَصَبَة النبي يقال لهُ ابن حمزة جلا الى الصين بثلاثة آلاف مهاجر ونزلوا في (سنغان فو) وانهُ جاء على اثرهم مسلمون آخرون من طريق البحر واقاموا بجهات يونان . ويذكر مؤرخو الصين انهُ في نواحي سنة ٧٥٨ اقبل على بحر الصين متلصصة من العرب يأخذون كل سفينة غصباً فعاثوا في تلك البحار وجاسوا خلال الديار واكتسحوا ضواحي كنتون واحتووا على ما في الاهراء السلطانية التي هناك . وهذه تباشير دخول العرب لتلك البلاد بحسب ما ورد في تواريخ الصين

ولم اجد الى الآن في الكتب التي طالعتها من كتب العرب اثراً لقصة ابن حمزة هذا ولا ما يوافقها وانما روى المسعودي في تاريخهِ قصة تحكيها من بعض الوجوه نأثرها بالاختصار وهي ان رجلاً من قريش من ولد هبار بن الاسود خرج الى مدينة سيراف وكان من ارباب البصيرة وذوي الاحوال الحسنة ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد الهند ولم يزل من مركب الى مركب ومن بلد الى بلد الى ان انتهى الى بلاد الصين الى مدينة خانقو ثم دعتهُ همتهُ الى ان سار الى ديار ملك الصين وكان الملك يومئذٍ بمدينة حمدان وهي من كبار مدنهم فاقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر انهُ من اهل بيت نبوة العرب فامر بعد هذه المدة الطويلة بانزالهِ في بعض المساكن وازاحة العلة بما يحتاج اليهِ . وكتب الى الملك المقيم بخانقو يأمرهُ بالبحث عنهُ ومسألة التجار وعما يدعيهِ من قرابة نبيّ العرب صلى الله عليهِ وسلم فكتب صاحب خانقو بصحة نسبهِ فاذن لهُ في الوصول اليهِ ووصلهُ بمال واسع واعادهُ الى العراق

ويظهر من كتب العرب ان اول صقع عرفوهُ من بلاد الصين هو كاشغر وذلك منذ سنة ست وتسعين للهجرة اذ غزاها قتيبة بن مسلم الباهليّ في خلافة الوليد بن عبد الملك الامويّ . قال ابن الاثير الجزريّ في تاريخهِ انهُ سار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلاً على معبر النهر ليمنع من يرجع الاَّ بجواز منهُ ومضى الى فرغانة وارسل الى شِعب عصام من يسهل الطريق الى كاشغر وهي ادنى مدائن الصين فغنم وسبى واوغل حتى بلغ قريب الصين فكتب اليهِ ملك الصين ان ابعث اليَّ رجلاً شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم

فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جمال والسن وبأس وعقل وصلاح فامر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشي وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابي فقال لهم اذا دخلتم عليهِ فاعلموهُ اني قد حلفت اني لا انصرف حتى اطأ بلادهم واختم ملوكهم واجبي خراجهم . فساروا وعليهم هبيرة فقال لهم ملك الصين قولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قلة اصحابهِ والاَّ بعثت اليكم من يهلككم . قالوا كيف يكون قليل الاصحاب مَن اول خيلهِ في بلادك وآخرها في منابت الزيتون واما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالاً اذا حضرت فاكرمها القتل اسنا نكرههُ ولا نخافهُ . وقد حلف ان لا ينصرف حتى يطأ ارضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية . فقال فانَّا نخرجهُ من يمينهِ ونبعث تراب ارضنا فيطأهُ ونبعث اليهِ بعض ابنائنا فيختمهم ونبعث اليهِ بجزية يرضاها. ثم اجازهم وبعث بما ذكر الى قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب . فقال سواد ابن عبد الملك السلولي

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم للصين ان سلكوا طريق المنهجِ
كسروا الجفون على القذى خوف الردى حاشى الكريم هبيرة بن مشمرج
ادَّى رسالتك التي استدعيتهُ فاتاك من حنث اليمين بمخرج

ووصل الخبر الى قتيبة في هذه الغزاة بموت الوليد ثم قُتل قتيبة في السنة نفسها ولا يبعد انهُ لو بقي حيًّا لاستأنف الكرة على الصين لما هو معهود من بعد همتهِ في الجهاد . ولا شك ان الاسلام كان قد دخل في البلاد منذ ذلك الوقت وكثرت اتباعهُ وما زالوا على نموّ وازدياد يُلحظ ذلك من تضاعيف الحوادث المذكورة في تواريخ العرب فقد ذكر ابن الاثير انهُ في سنة اربع وستين ومائتين ظهر ببلاد الصين انسان لا يُعرَف جمع غمارًا من العامة واهل الشرّ وقصد بهم مدينة خانقو وحصرها . قال وهي حصينة ولها نهر عظيم وبها عالم كثير من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وغيرهم من اهل الصين . هذا في القرن الثالث للهجرة واما بعد ذلك فتزى الاخبار عن مسلمي الصين كثيرة . نقل الامام احمد القلقشنديّ المتوفى سنة ٨٢١ عن الشريف حسن بن الجلال السمرقنديّ وكان من السفَّار وممن جال الآفاق ودخل الصين وجاب آفاقهُ وجاس خلالهُ انهُ قال ان من عجائب ما رأى في مملكة القان (اي الخان) انهُ مع كفرهِ في رعاياهُ من المسلمين امم كثيرة وهم عندهُ مكرمون محترمون ومتى قتل احد الكفار مسلمًا قُتل القاتل الكافر واهل بيتهِ ونهبت اموالهم وان قتل مسلم كافرًا لا يُقتل بهِ بل يُطلَب بديتهِ ودية الكافر عندهم حمار لا يطلب بغيرهِ

ولم يدخل الاسلام بيت الملك في تلك البلاد الاَّ ما كان ببلاد المغول في ذرية جنكيز

خان وفي كاشغر . قال ابن خلدون في الجزء الخامس من تاريخهِ عند ذكر الترك أنهُ كانت لهم دولة ببلاد تركستان وكاشغر وان ملوكهم اسلموا بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم وكان بينهم وبين بني سامان القائمين فيما وراء النهر بدولة بني العباس حرب وسلم

قال يحيى بن احمد بن علي النسابي كاتب جلال الدين خوارزم شاه في تاريخ دولتهِ ان مملكة الصين منقسمة من قديم الزمان على تسعة اجزاء كل جزء منها مسيرة شهر ويتولى كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان ويكون نائبًا عن الخان الاعظم وكان جنكيز احد الخانات المذكورين فتغلَّب عليهم جميعًا وصار الملك الاعظم . وفي كتاب ابن فضل الله محكيًا عن الصاحب علاء الدين عطاء ان دينهُ ودين قومهِ كان المجوسية حتى ملكوا الارض واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وما وراء الهند فاسلم من ملوكهم من هداهُ الله للاسلام

وذكر ابن خلدون في الكلام على ملوك بني جغطاي بتركستان وكاشغر وما وراء النهر انهم كانوا اولاً كلهم على دين المجوسية يعفرون عليها بالنواجذ فلما صار الملك الى (ترماشين) منهم اسلم سنة خمس وعشرين وسبعمائة وجاهد واكرم التجار المترددين

وذكر الملك المؤيد صاحب حماه في تاريخهِ في خبر الملوك بني دمرش خان وهو من اولاد جنكيز خان انهُ لما مات دوشي خان ولي مكانهُ ابنهُ ناطو خان ثم مات وولي بعده طرطو خان ثم مات فولي بعدهُ ابن اخيهِ واسمهُ بركة فاسلم على يد شمس الدين الباخوري وكان مقيمًا ببخاري كتب اليهِ يدعوهُ الى الاسلام فاسلم وان بركة هذا اعمل الرحلة الى لقاء شمس الدين فلم يأذن لهُ في الدخول حتى تطارح عليهِ اصحابهُ وسهلوا الاذن لبركة فدخل وجدد اسلامهُ وعاهد الشيخ على اظهار الاسلام وان يحمل عليهِ سائر قومهِ فعلمهم واتخذ المساجد والمدارس في بلاده وقرَّب العلماء والفقراء . ثم ذكر المؤرخون اسلام ازبك بن طغرجاي من سلالتهم واسلام تكدار بن هولاكو وخربندا بن ارغون ثم احمد بن هولاكو . وفي مختصر الدول لابي الفرج الملطي صورة كتاب كتبهُ الى سلطان مصر في ذلك الوقت جاء فيهِ " بقوة الله باقبال قاان فرمان احمد اما بعد فان الله تعالى بسابق عنايتهِ وبنور هدايتهِ قد كان ارشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة الى الاقرار بربوبيتهِ والاعتراف بوحدانيتهِ والشهادة لمحمد عليهِ افضل الصلاة والسلام بصدق نبوتهِ (الى ان يقول) وانفذنا اقضى القضاة قطب الدين والانابك بهاء الدين وهما من ثقات هذه الدولة القاهرة ليعرفاهم طريقتنا ويتحقق عندهم ما ينطوي عليهِ لعموم المسلمين جميل سنتنا وبيناً لهم انا من الله على بصيرة وان الاسلام يجبُّ ما قبلهُ الخ "

وقال القلقشندي في " صبح الاعشى " ان اول من اسلم من ملوك هذه المملكة ترماشيرين

فاسلم واحسن اسلامهُ واخلص وايد الاسلام وقام بهِ حق القيام وامر بهِ امراءهُ وعساكرهُ وذكر ايضاً عن بكدار انهُ اسلم

وقد بقي الاسلام في اعقاب الاويغور طائفة جنكيز خان الى يومنا هذا. ففي جغرافية اليزه ركلوس "ان الاويغور والطانغوت سكان بلاد كانسو كانوا قديماً من عبدة اللاما ومن النساطرة فاسلموا واسلم بهم جميع سكان الشمال والغرب من مملكة جغطاي ثم ازداد عددهم بهاجرة المهاجرين من اهالي التركستان الشرقي ومسلمي المغول الذين بقوا من عهد تمرلنك وبهذا صارت الاغلبية للاسلام في هذا القسم من مملكة الصين"

ولما دخل ابن بطوطة الصين على ما ذكر في رحلتهِ كان الاسلام فيها غضاً وافراً حسبما يفهم من كتابهِ فهو يقول في الجزء الرابع من رحلتهِ "وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون"

ولما ذكر مدينة زيتون قال "وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والارض وداره في وسطها كمثل ما في بلدة سجلماسة في بلادنا وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة". ثم قال عمن تعرَّفهُ من صدور تلك البلاد "وجاء اليَّ قاضي المسلمين تاج الدين الاردوبلي وهو من الافاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبدالله الاصفهاني وهو من الصلحاء وجاء اليَّ من كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي احد التجار الذين استدنت منهم حين قدومي على الهند وهؤلاء التجار لسكناهم في بلاد الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا بهِ اشد الفرح وقالوا جاء من ارض الاسلام ولهُ يعطون زكوات اموالهم فيعود غنياً كواحد منهم"

وقال عند ذكرهِ مدينة صين كلان "ان ببعض جهاتها بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاضٍ وشيخ ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون امور المسلمين كلها راجعة اليهِ وقاضٍ يقضي بينهم وكان نزولي عند اوحد الدين السنجاري وهو احد الفضلاء الاكابر وذوي الاموال الطائلة"

وذكر عند وصولهِ الى مدينة قنجنفو ان المسلمين فيها يسكنون داخل السور الثالث وانهُ نزل عند شيخهم ظهير الدين القرلاني وقال عن الخنساء انها ست مدن كبار وان بالمدينة الثانية منها مسكن اليهود والنصارى والترك وبالثالثة مسكن المسلمين وبها المساجد ولاولاد عثمان ابن عفان المصري وهم كبراء المسلمين فيها زاوية تعرف بالعثمانية وبها طائفة من الصوفية والمسلمون كثيرون في هذه البلدة

والظاهر ان الاسلام ما برح ينتشر في آفاق الصين حتى بلغ عدد اهله عشرات من الملايين . زعم سكاتشوف انهم عشرون مليونًا فقط وذهب الاكثرون الى ان عددهم فوق هذا بكثير واحصاهم صاحب كتاب (le mahométisme en Chine) المحمدية في الصين خمسة وثلاثين مليونًا وزعم بعضهم انهم اربعون مليونًا وقال آخرون انهم يربون ايضًا على ذلك وان السواد الاعظم في ولاية كانسو هو منهم وهناك مدينتا سالار وكنكيابو محطا رحال الطلاب والمتفقهين من جميع اقطار الاسلام الصينية . وقد احصي عدد المساجد في بعض مدن كانسو فبلغ مئات وهو ما لم يعهد الاَّ لعواصم الاسلام الكبرى مثل الاستانة العلية ودمشق والقاهرة وان كثيرًا من ولايات الصين الشمالية ثلثها من المسلمين وهم اهل التجارة والكد والعمل ولذلك تجد حالتهم اجمل وازين من حالة بقية الصينيين وكثيرًا ما يأخذون اولاد الفقراء من الوثنيين ويربونهم في حجر الاسلام خصوصًا عند حصول المجاعات الشديدة . وقد شدَّد فقهاؤهم عليهم في اداء الزكوات فيجمعونها في صناديق لكل بلد ينفقون منها في شدائدهم ويسدون بها عوز محاويجهم فتجد المعدمين منهم قليلين ولهم بعضهم على بعض حنان ورأفة وحفيظة فيما بينهم وعلى عدوهم لا توجد في الامم التي تساكنهم كذلك بسبب تجافيهم الافيون وانواع المسكرات تجد اجسامهم احسن من اجسام غيرهم فهم يفوقون جيرانهم الصينيين صورة ومعنى ويسميهم الصينيون "هواي هواي" وهذا لقب طائفة الاويغور في الماضي واما هم فيؤثرون ان يسموا "كيا ومن" اي اهل الدين عطفًا على "ان الدين عند الله الاسلام". ومسلمو بلاد يونان الجنوبية يعرفون باسم "بانطي" وجميع المسلمين هناك يتميزون عن سائر الاهالي بملابسهم وشاراتهم ووحدة ملابسهم ويلوح عليهم من النُعرة والانفة ما لا يلوح على سواهم وكلهم من اهل السنة والجماعة ولكنهم في الفقه فئتان الحنفية والشافعية وهم يكرهون جدًا الاختلاط بالوثنيين ولا يزوجونهم وانما يأخذون من بناتهم في الاجانبين شراء بالدرهم

وقد وقعت لمسلمي الصين في هذا القرن مع اهل تلك المملكة حروب تشيب لها الاطفال اذا استقصى خبرها المؤرخ لم تكفه فيها المجلدات وملخصها ان اول ثورة حصلت هناك هي في بلاد يونان بسبب عملة من الفريقين كانوا يعملون في احد المعادن فاسفر القتال عن الغلب للمسلمين وتكررت الحوادث والظهور لهم حتى بلغ الخنق من ولاة الصين مبلغه فاستنفروا اليهم الوثنيين قاطبة ونادوا باستئصال شأفتهم وتعفية آثارهم وذلك في يوم معين من شهر ايار احد شهور سنة ١٨٥٦ فاستشعر المسلمون ذلك قبل وقوعه واخذوا له اهبتهم وجمَّروا واستلأموا فلما وقعت الواقعة توفرت الطائلة لجهتهم ولم تنل الحكومة منهم مأربًا الاَّ في القرى التي مسلموها قليلون .

وتكررت الوقائع وعمد الفريقان بعضهم لبعض من اكثر جهات البلاد والمسلمون في غلبة وظهور حتى افتتحوا عنوة مدينة " طالى فو " وهي منيعة حصينة من الطراز الاول في حصون الصين وفتحوا منها طريقاً الى برمانيا يسربون منهُ اليها المير والسلاح ثم استولوا على مدينة " يونان فو " حاضرة البلاد ومضى على دولتهم هذه وهبوب ريحهم بتلك الارض ثلاث عشرة سنة والصين لا تزداد امامهم الا انخذالاً حتى ايقنت ان لا قبل لها بقهرهم بذباب السيف فمالت الى اعمال الحيلة والدسائس وجاذبت زعماءهم حبال الرشوة ومنتهم الاماني وادرَّت عليهم العطايا الوافرة سرًّا وولتهم الاعمال الخطيرة حتى فصمت عرى اتحادهم وحلت بنفثات سحرها عقدة جامعتهم بل استمالت بعض رؤسائهم الى ان وقفوا في صفها يقاتلون بني ملتهم فبديهيًّا ان تخلَّ بعد ذلك عصبتهم وتفشل ريحهم وان يزرع الصينيون فيهم الانقسام حتى يهلك منهم ثلثون الفاً بحد السيف ويلحق اقوام منهم بمملكة برمانيا

اما في شمالي الصين فاستطار شرر الفتنة سنة ١٨٦٠ وذلك في " هوانشيو " شرقي " سينغان فو " وكانت الدائرة على الصينيين وتأثرهم المسلمون في كل سهل وجبل يقتلون ويسبون ولكنهم عجزوا عن دخول سينغان فو لمناعة اسوارها ثم امتد لهيب الثورة في تلك البلاد ونادي منادي الاسلام بيالثارات فقاموا قيامة الرجل الواحد وفرَّ الصينيون والمغول من امامهم وانهال المسلمون في اثرهم يشلونهم شلاً ويستقصونهم اسرًا وقتلاً وامتلأت ولايات شانسي وكانسو عيثًا ودمارًا والتجأ الوثنيون الى الكهوف والمغاور وظنوا انها مانعتهم فلم تكن بمانعتهم واشتمل الخراب على تلك البلاد حتى لم يبقَ قرية الأخوت على عروشها ولم يذر المسلمون الأعلى المسيحيين ولم يبقَ عامرًا من تلك الجهات الا الامصار الكبيرة بما اديرعليها من سياج الاسوار . وقُدِّر عدد الذين هلكوا في هذه المعمعة بالملايين . وحدَّث بعض مؤرخي الافرنج ان من المسلمين من بلغ منهُ الحنق ان قتل اولادهُ وامرأتهُ ليتوفَّر على الجهاد . والحاصل ان هذه الفتنة كانت من اكبر الفتن واستمرت خمسة عشر عاماً كاد ينقطع امل الصين في خلالها من استرداد البلاد ولكن لم يلبث الشقاق ان دخل بين المسلمين فادخل عليهم الوهن وتشظَّت عصاهم قطعاً فنالت منهم عساكر الامبراطور واسترجعت الشانسي ثم الكانسو ثم معاقل تيان شان وبددت شمل الباقين من الثوار في دز ونغاريا ولكنهم لا يزالون الى الآن اهل صولة وشوكة وشأنهم على ازدياد وجدهم في صعود ومنهم كثير من الحكام وقواد الجيش . وكثير من المؤرخين الاوربيين يظنون ان لهم وحدهم مستقبل السلطان في الصين . وقد بعثت الدولة الروسية مرةً بعثاً علمياً يجال في الصين ويجاب آفاقها واطلع على دخائل امورها فكان من جملة ما قررهُ تحذير الروسية

من مستقبل الاسلام في تلك المملكة لانهُ ينمو ويتقدَّم واذا اخذ يومًا بزمام الدولة انقلبت هيئة الشرق الاقصى انقلابًا عظيمًا لان الصين اسلامية ليست كالصين وثنية (وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين)

شكيب ارسلان

الجرائم واسبابها

الجرم لغةً الذنب وعرَّفهُ علماء القانون بما يقع من فعل او حركة خلافًا للحق والعدل والقانون . او هو كل فعل نصَّ القانون بالعقاب عليهِ لكونهِ منافيًا للعدل لمخالفتهِ مصلحة الجمهور

والجرائم على اختلاف انواعها القانونية لا تخلو منها امة من الامم الا الجيل من الاجيال ولا تختص بمصر دون اخرى بل تستوطن وتستقرّ في جميع الامصار سواء كانت آهلة باقوام متوحشين او متمدنين . وقد تنبه لها في القرن الماضي جماعة من المحققين وفي مقدمتهم الاستاذ لومبروزو الايطالي واهتموا بمعرفة الاسباب التي تحمل الناس على اقترافها وبعد التنقيب توصلوا الى كشف حقائق جليَّة وان قلت ولا جناح عليهم اذا قلَّ ما اكتشفوهُ مع طول مدات البحث ولا لوم اذا لم يبلغوا الغايات المرومة لانهم فلال ولان العقبات التي اعترضتهم في خلال التحقيق كثيرة لا يعترض مثلها غيرهم في التنقيب عن غيرها من الحقائق العلمية

ومع ان البحث عن الجرائم واسبابها مهم جدًّا ترى الجرائد العربية عمومًا مقصرة عن الخوض فيهِ والعناية بدرسهِ الا ان مجلة المقتطف تعرضت لهُ غير مرة كما ترى في مقالة الجنون والجرائم المدرجة في الجزء الثاني من المجلد الحادي عشر ومقالة منع الجرائم المدرجة في الجزء السادس من المجلد الثاني والعشرين ومقالة الجرائم والاوهام المدرجة في الجزء الاول من المجلد الثالث والعشرين . وقد عنَّ لخاطري الضعيف على ما بي من العجز والتقصير ان اطرق باب هذا البحث مستلفتًا انظار علمائنا الاعلام الى استجلاء غوامضهِ منبهًا اطباءنا الحاذقين لكشف كثير من اسرارهِ

اطبق العلماء في كل عصر واتفقوا على ان الاجتماع ضروري للنوع الانساني لان الواحد من الناس لا بدَّ لهُ في تحصيل غذائهِ وكمالهِ والدفاع عن نفسهِ من الاستعانة بابناء جنسهِ والانسان بطبعهِ الحيواني ميال الى الشر نازع الى الظلم

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يظلمُ

وهذا الطبع الحيواني لا يفارقهُ ولو انتظم في سلك الاجتماع بل يرافقهُ فيهِ ويدفعهُ الى